الأبعاد الديستوبية في رواية "وحدها شجرة الرمان" لسنان أنطون *

The dystopian dimensions in the novel “Alone the Pomegranate Tree” by Sinan Antoon

أ. د سامية إدريس

جامعة عبد الرحمن ميرة- بجاية (الجزائر)، مخبر التأويل وتحليل الخطاب

samia.idris@univ-bejaia.dz

ملخص:

ارتبطت الديستوبيا في الآداب الغربية بالخيال العلمي، وعدت فرعا من فروعه الكثيرة، ولم يعرف العالم العربي محاولات في الرواية الديستوبية إلا مؤخرا، خصوصا عقب فشل ما يعرف بثورات الربيع العربي، حيث سعى الروائيون إلى ابتكار عالم افتراضي مقتبس من الواقع، لتقديم صورة موازية له، أو ربما مضوا إلى عوالم ممكنة التحقيق.

نستكشف في هذه الورقة الأبعاد الديستوبية التي تزخر بها رواية "وحدها شجرة الرمان" للروائي العراقي المغترب سنان أنطون، عبر تشكلات الموت الذي يمثل تيمة محورية طاغية على الرواية، والبنية الكابوسية التي تؤطر الإيقاع السردي، والوقوف عند شخصية اللامنتمي التي يجسدها بطل الرواية جواد كاظم في مقاومته للاستبداد والعنف والطائفية، وتأملاته الوجودية إزاء الموت الذي يلامسه يوميا في أجساد الموتى الذين يتولى تغسيلهم قبيل الدفن. لنتوصل إلى ضرورة لإعادة النظر في تعريف الرواية الديستوبية العربية، لأن قتامة الواقع فاقت حدود التخييل الديستوبي، لذا وجب توسيع المصطلح، وفي ارتحال المفهوم من الخيال العلمي إلى الواقع المرير في رواية "وحدها شجرة الرمان".

الكلمات المفاتيح: الديستوبيا، الموت، اللامنتمي، البنية الكابوسية، الواقع المرير.

Abstract:

In Western literature, dystopia was considered as a sub-genre of science fiction. The Arab world did not know attempts at dystopian novels until recently, especially after the failure of what is known as the Arab Spring revolutions.

In this paper, we explore the dystopian dimensions of the novel “Alone the Pomegranate Tree” by the expatriate Iraqi novelist Sinan Antoon, through the formations of death, which represents a central, overwhelming theme of the novel, and the nightmarish structure that frames the narrative rhythm, and focusing on the character of the nonconformist embodied

*

تاريخ استلام البحث: 2024/12/15	تاريخ قبول البحث: 2025/03/21	تاريخ النشر:15 / 05/ 2025

by the novel's hero, Jawad Kazem, in his resistance to tyranny, violence and sectarianism, and his existential reflections on death.

In conclusion, we found it necessary to reconsider the definition of the Arab dystopian novel, because the darkness of reality exceeded the limits of dystopian imagination, so the term must be expanded.

Keywords: Dystopia; Death; The non-belonging; Nightmarish structure; Bitter reality.

1-مقدمة:

عرفت الروايات الديستوبية التي تصف "المدينة الفاسدة" انتشارا واسعا في الغرب على نحو خاص في القرن العشرين، حيث سادت الشكوك وتصاعدت حول جدوى المثالية في حل المشاكل السياسية والاجتماعية.. بعد انحسار موجة اليوتوبيات التي سادت نهاية القرن التاسع عشر، وقد ارتبط ظهور الديستوبيا بجملة من العوامل السوسيوتاريخية المزرية التي زرعت في النفوس احساسا عميقا بالتشاؤم من مستقبل الإنسان، على غرار الحربين العالميتين، والقنابل النووية، وظهور وباء الأنفلونزا، وحدوث الكساد العظيم، ونشوب الحرب الكورية، والحرب في فيتنام، وغيرها من الحوادث الجسام التي أثرت على مصير البشرية ككل، ولم يعرف العالم العربي محاولات في الرواية الديستوبية إلا مؤخرا، خصوصا عقب فشل ما يعرف بثورات الربيع العربي، حيث سعى الروائيون إلى ابتكار عالم افتراضي مقتبس من الواقع، لتقديم صورة موازية له، أو ربما مضوا إلى عوالم ممكنة التحقيق، من هنا كمنت في صميم ذلك الأدب صيغة تحذيرية إزاء امكانية انهيار المجتمع أو انغماسه في مهوى المفاسد والتحلل. لكن بعض الروايات حملت ابعادا ديستوبية واضحة دون أن تنتمي بشكل صريح لهذا النوع الأدبي، على غرار رواية "وحدها شجرة الرمان" لسنان أنطون.

نسعى في هذا المقال إلى استكشاف الأبعاد الديستوبية في هذه الرواية، ومحاولة توسيع مصطلح "الرواية الديستوبية" لتشمل الواقع المرير كذلك.

2. الرواية العربية والديستوبيا

لم يعرف العالم العربي محاولات في الرواية الديستوبية إلا مؤخرا، خصوصا عقب فشل ما يعرف بثورات الربيع العربي، فلجأ الروائيون إلى ابتكار عالم افتراضي منحوت من مفردات الواقع، لتقديم صورة موازية له، أوعوالم ممكنة بديلة يبثون فيها نداءات التحذير من إزاء انهيار المجتمع أو انغماسه في مهوى المفاسد والتحلل. وجد الأدب الديستوبي في المجتمعات العربية تربة غنية، لينطلق منها عبر أخيلة الأدباء الذين نزعوا إلى افتراض عالم أشد قتامة وأكثر سوداوية مما هو عليه الحال في مجتمعاته، حيث ضاقت به السبل، ولم يجدوا فسحة للأمل اليوتوبي فغاصوا في خضم موضوعات الفساد والظلم والقتل

التي أفضت إلى الدمار والخراب[1] ، وقد أحصى الباحث أحمد علي محمد مجموعة من الروايات العربية التي تمثل هذا النوع الأدبي الناشئ في الثقافة العربية، ومنها رواية "مقتل فخر الدين" للروائي المصري فيشر 1995، وله ست روايات أخرى هي "أسفار الفراعين" 1999، "غرفة العناية المركزة" 2008، "أبو عمر المصري" 2010، "عناق عند جسر بروكلين" 2011 و"باب الخروج" 2017، وللروائي العراقي صادق الجمل رواية "سفينة نوح الفضائية" 2009، ورواية "الواجهة" ليوسف عز الدين عيسى، وروايات أحمد خالد توفيق "يوتوبيا"، "في ممر الفئران" ..الخ، ورواية واسيني الأعرج "حكاية العربي الأخير 2084" 2015، ورواية فرانكشتاين في بغداد" 2013 للعراقي أحمد السعداوي، والروائي الفلسطيني إبراهيم نصر الله في رواية "حرب الكلب الثانية" 2016، والمغربي محمد ربيع في رواية "عطارد" 2015، ورواية "الجليل والصعلوك" محمد سالم، ورواية "الطابور" 2014 لنسمة عبد العزيز، ورواية عمر حاذق "روائي المدينة الأول" 2014، ورواية "أورويل في الضاحية الجنوبية" 2017 لفوزي ذبيان...الخ[2].

3. ارتحال المفهوم من الخيال العلمي إلى الواقع المرير

ارتبطت موجة الكتابات الديستوبية في العالم العربي بحالة عامة من التدهور والانحطاط عصفت بالإنسان العربي، أسهمت عدة عوامل في ظهورها في مقدمتها معاناة الشباب من الإقصاء السياسي والتمييز، والاختلال في توزيع الثروات رغم الغنى الهائل الذي تتمتع به المنطقة العربية، حيث استأثرت نخب ذات ارتباط وثيق بالسلطة بمقومات الثروة، بينما هُمشت قطاعات واسعة من المجتمعات العربية، وبقيت ترزح في الفقر، خاصة مع تبني معظم الدول العربية طوعا أو كرها لآليات السوق والتجارة الحرة، وتراجع دورها الاقتصادي والاجتماعي، مع تزايد القمع والاستبداد، وغياب الحقوق والحريات، وانتهاكات واسعة لحقوق الإنسان، مع تركيز السلطة في يد نخب بالحزب أو الأسر الحاكمة. هذه الحالة من الاختناق السياسي الذي شهدته المنطقة العربية أدى إلى ظهور الحركات الاحتجاجية، بعضها ذات صبغة سياسية أو اجتماعية، وبعضها ذات صبغة دينية أو عرقية.

ومن ناحية أخرى فشلت معظم الدول العربية في تحقيق اندماج وطني بين الجماعات الدينية والعرقية والإثنية المختلفة، مما أدى لإذكاء الطائفية وتهميش الأقليات. وبالتزامن مع ضعف الدول الوطنية وفساد حكامها تصاعد تدخل الفاعلين الدوليين والإقليميين في السياسات الداخلية لدول المنطقة مما فاقم من حالة عدم الاستقرار في المنظومة السلطوية في العالم العربي، خاصة في السنوات الأخيرة، حيث نشهد دعم قوى دولية وإقليمية مبادرات تخل باستقرار النظام العربي القائم، وقد تجلى هذا التوجه في التدخل الأميركي في الصومال، الاحتلال الأميركي للعراق، دعم مبادرات الانفصال في جنوب السودان، عزل حماس في قطاع غزة، وحزب الله في لبنان. حتى "النظم المعتدلة" تعرضت لضغوط خارجية متزايدة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، والربط بين الإرهاب وغياب

الحريات لإدخال إصلاحات سياسية وإطلاق الحريات السياسية والمدنية. ومن ناحية أخرى، شهدت المنطقة تصاعدا في نفوذ قوى إقليمية صاعدة، مثل إيران وتركيا، وبدأت تؤثر بشكل ملحوظ في مجريات الأمور في العالم العربي[3].

ساعدت كل هذه العوامل بشكل أو بآخر في بناء عالم الديستوبيا الأدبي في الواقع المعيش في العديد من المناطق في الوطن العربي؛ ومنها العراق الذي شهد نظاما استبداديا حكم فيه حزب البعث بقبضة من حديد، وتوالت على الشعب العراقي الويلات إبان الحروب المتوالية التي خاضها عراق البعث. «شهد سكان العراق ثلاثة أنواع من الحروب على امتداد ثلاثة وعشرين عامًا: الحرب التقليدية التي اندلعت مع إيران، والتي جرت من خلال وحدات كبيرة من المشاة بين دولتين تمتلكان موارد متكافئة؛ وحرب الخليج الأولى التي تميّزت بالاستخدام غير المتناسب للقوة وتكنولوجيات معقدة وعنيفة؛ ثم ما أطلقت عليه الباحثة جوي غوردون "الحرب الخفية" التي أدمجت استخدام العقوبات الاقتصادية مع الغارات الجوية الجراحية»[4] التي شنتها الولايات المتحدة الأمريكية وقوات التحالف خلال سنوات الحصار. وقد ازدادت الأوضاع كارثية سوءا مع حرب الخليج الثانية أوالغزو الأمريكي للعراق في 2003، وتركت كل هذه الحروب وما نجم عنها من خسائر في الأرواح تأثيرا عميقا في الحياة اليومية للعراقيين، الذين عاشوا الديستوبيا واقعا طويل الأمد وعبروا عنه في روايات حملت أبعادا ديستوبية واضحة مع أنها لا تمت إلى الخيال العلمي أو الخيال السياسي بصلة، ومنها رواية "وحدها شجرة الرمان" للكاتب العراقي المغترب أنطوان سنان، التي يتناولها هذا المقال أبعادها الديستوبية بالتحليل.

4. الأبعاد الديستوبية في رواية "وحدها شجرة الرمان"

1.4 التعريف برواية "وحدها شجرة الرمان" لأنطون سنان

سنان أنطون شاعر وروائي وأكاديمي عراقي، من مواليد بغداد عام 1967، درس الأدب الإنجليزي في جامعة بغداد، ثم هاجر بعد حرب الخليج في 1991 إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث واصل دراساته العليا في جامعة جورج تاون التي نال منها شهادة الماجستير في 1995، والدكتوراه في الأدب العربي من جامعة هارفارد في 2006. وهو يعمل أستاذا للأدب العربي في جامعة نيويورك. لسنان أنطون نتاج شعري بالعربية وترجمات لشعر محمود درويش ويوسف سعدي، وقد أصدر ثلاث روايات، هي "إعجام" عام 2003، رواية "وحدها شجرة الرمان" عام 2010 و"يا مريم" عام 2012، وقد ترجمت رواياته إلى عدة لغات. وبالإضافة إلى مقالاته وأبحاثه الأكاديمية، أخرج فيلما وثائقيا عن العراق بعد الغزو بعنوان "حول العراق" صوره في بغداد سنة 2003.

"وحدها شجرو الرمان" هي الرواية الثانية لسنان أنطون، صدرت في طبعتها الأولى عام 2010، وترجمت إلى الفرنسية والإنجليزية، الطبعة التي نشتغل عليها من منشورات دار الجمل (بيروت – بغداد،

2013) من 255 صفحة من القطع المتوسط، يتوزع فضاؤها النصي على 55 مقطعا مرقمة بدون عنوان، تتفاوت طولا، ويشكل كل منها وحدات مترابطة ضمن خط سردي متتابع، تتخلله استرجاعات يمتد بعضها لفترة الطفولة، وبعضها الآخر لفترة حكم حزب البعث، والحرب العراقية الإيرانية... لكن حاضر السرد يتوالى في إيقاع رتيب بعيد غزو العراق ودخول الجيش الأمريكي إلى بغداد منتحلا صفة المحرّر في 2003 لسنوات لاحقة يشبه بعضها بعضا في إيقاع الموت العبثي، وتتخللها أحداث تمر بها الشخصية المحورية، شخصية جواد كاظم، تنتقل به تدريجيا من حلم الانفلات من الموت عن طريق الفن التشكيلي إلى التعايش اليومي مع الموت من خلال المهنة التي تتوارثها العائلة أبا عن جد، والمتمثلة في تغسيل الموتى، ولا تنجح محاولته الوحيدة للخروج من العراق ليواصل الموت ببطء وسط الموتى في يقظته وكوابيسه.

تتولى الشخصية المحورية في الرواية عملية السرد بضمير المتكلم وفي صيغة الماضي في إيقاع رتيب بل وممل، يوحي بما تكابده الشخصية نفسها، رغم فداحة الأحداث التي تمر بها، ما تكابده من موت بطيء تفقد معه حتى الاحساس بفاجعة الموت نفسه، لكثرة ما صار الموت في العراق مبتذلا. وتتخلل عملية السرد التي تتم كلية من وجهة نظر الشخصية المحورية بعض الحوارات بالعامية العراقية. هذا ويشغل الوصف حيزا معتبرا في السرد، حيث تتشبع الرواية بوصف كل الجزئيات مع التركيز على معطيات الحواس بما يجعل القارئ يتمثل كل التفاصيل، كما لو كان يشاهد شريطا مصورا.

أراد سنان أنطون من خلال هذا العمل تصوير جانب من المأساة العراقية التي استمرت ولا تزال لعقود طويلة، وقد اختار زاوية فريدة من نوعها كي ينفذ إلى عمق المأساة، والمتمثلة في تصوير علاقة الإنسان العراقي بالموت الذي أصبح جزءا من روتينه اليومي قبل غزو الأمريكان للعراق بأمد جراء الحروب المتوالية منذ الحرب العراقية الإيرانية، وحرب الخليج الأولى والثانية وسنوات الويل والحصار، فضلا عن جرائم النظام الحاكم المستبد إزاء أطياف من الشعب العراقي، وليكتمل المشهد، دخلت العراق في صراعات طائفية دائمة، وحروب بالوكالة بين القوى الإقليمية والدولية، وغيرها من الويلات التي أعقبت بسبب التنظيمات الإرهابية ...الخ.

2.4 تشكلات الموت في الرواية

لطالما شغل الموت الفكر الإنساني منذ بدء الخليقة، ونسجت في ذلك القصص والأساطير للتعبير عن هواجس الإنسان إزاء سؤال الوجود والعدم، وفي رواية سنان أنطون يطفح الموت الملازم للبطل جواد كاظم كظله، من كل صفحة بل من كل فقرة وسطر من الرواية، لتتشكل بذلك ملامح عالم ديستوبي قاتم، تؤثثه جثث الأموات وأحداث القتل والدمار في كل آن. ينفتح وعي جواد على عمل أبيه "مغسلجيّا"، وصاحب محل لغسل الأموات وتكفينهم على المذهب الشيعي قبل أن يأووا إلى مقرهم

الأخير في المقبرة. وقد راود الفضول جواد طفلا ومراهقا وهو يكتشف مهنة أبيه، وكان أبوه بدوره يعدّه ليكون خلفه في هذه المهنة التي تتوارثها العائلة أبا عن جد منذ ستة عقود. انتاب جواد كاظم الطفل الفضول إزاء مهنة أبيه، وتقرب منه ليعرف تفاصيلها بشغف، لكن الشغف ما لبث أن تلاشى ليحل محله النفور والكوابيس المزمنة. يذكر جواد تفاصيل كثيرة عن مرأى الجثث السليمة أولا ثم يصف أول جثة مشوهة لشاب دهسته سيارة، «كانت الغالبية العظمى من الأجساد التي رأيت أبي يغسلها سليمة وغير مشوهة باستثناء شاب دهسته سيّارة مسرعة وهة يعبر الشارع فجيء بجثته. جاؤوا به ملفوفا بالنايلون الملطّخ بالدماء (...) اقشعر جلدي حين أبصرت الجسد الذي بدا كأن قطيع ذئاب هجم عليه وسلخ الكثير من جلده ونهش لحمه...»[5]. يصف جواد علاقته بالجثث وهو يتعلم المهنة تدريجيا، وكما يذكر أول جثة مشوهة رآها وأثارت فيه مشاعر القشعريرة يروي بالتفصيل أول تعامل له مع جسد ميت عن طريق اللمس، واصفا بدقة تأثير ذلك فيه، «ما زلت أذكر برودة وملمس ذلك الجسد الذي ساعدت أبي في غسله وتكفينه في تلك الظهيرة. كان لكهل في العقد السادس من عمره. كانت بشرته مليئة بالتجاعيد وقد اصفرّت بشكل غريب. فاحت منه رائحة نتنة وأدركت يومها حكمة استخدام السدر والكافور.»[6] يسترسل السارد في تفاصيل الجثة قبل أن يصف أثرها في نفسه، فقد بدأ جواد يرتاب بعد تجربته الأولى في ملامسة جسد ميّت من قدرته على ممارسة هذه المهنة التي ستصير قدره المحتوم. يؤثث الموت كل مقاطع الرواية، وتتناثر فيها الجثث في اليقظة والمنام، وقد اتبع السارد أسلوبا واقعيا شبه تسجيلي في وصف تقاسيم الأجساد الباردة دون حياة، منوّعا على هذه التيمة تنويع مظاهر الموت من الموت شيخوخة، فالموت جراء حوادث أو قصف أو عمليات تفجيرية، وغيرها، وقد ولّد حضور الموت المستمر في حياة جواد كاظم وفي عراق الألفينات جراء الحروب المتتالية والغزو الأمريكي والاقتتال الطائفي، ولدت عنده رؤيا خاصة اتجاه التاريخ، الذس يتصوره يقول: «أكوام من الأحداث التي غالبا ما تخلّف وراءها أكواما من الجثث.»[7].

يشكل الموت بؤرة توليد السرد، والبحث عن جمالية الموت في الرواية يسلط الضوء على البنية الأنثروبولوجية لثنائية الموت والحياة التي استلهمها الكاتب من واقعه كإنسان بدرجة أولى مصيره الموت ككل الكائنات الحية. فالسمة الأساسية هي سيطرة الموت على مفاصل الرواية وامتدّت من فضائها الورقي إلى حقيقة الإنسان سوسيولوجيا وعلى مستواه الفردي. فالثابت في جمالية الموت في الرواية يبدو في مستوى التحولات الأفقية والعمودية للخطّ السردي داخلها أي في الزمان والمكان وفي اختيار بطل يعمل مع الموت وجها لوجه[8]، ورغم محاولاته الفكاك من مصيره إلا أنه يعود إليه وقد جرفه النهر الكبير، أي التاريخ إلى الموت. لقد ضاقت بجواد سبل العيش فاضطر لامتهان التغسيل مجددا، بعد مقاومة طويلة ارتمى فيها بأحضان الفن، واشتغل بالدهان لمدة من الزمن، لكن بعد فترة من وفاة

الوالد، وانقطاع كراء المغيسل واختفاء حمودي، مساعد أبيه، وإثر مرض والدته، أجبرته الحاجة لفتح المغيسل ليسترزق من الموت الذي لطالما شكل مصدر عيشه، منذ طفولته، حين كان والده يصرف عليهم من مهنة تغسيل الموتى. وقد شرع منذ بدايته العمل يدوّن أسماء الموتى في دفتر ما لبث أن صار دفاتر مع تكاثر أعداد الموتى بإفراط جنوني جراء الاقتتال الطائفي والإجرام.

لقد شكل الموت هاجسا للروائي العراقي المعاصر على اختلاف انتماءاته الفكرية، بحكم معايشته له يوميا، فجاءت نصوص كثيرة تحاكي فضاء الموت، وقد قدم سنان أنطون لتشكلات الموت تنويعات كثيرة يروي من خلالها مشاهد مروّعة من العراق الحديث، لكن بلاغة الديستوبيا تظهر في غياب الحس الفجائعي إزاء كل الأهوال التي يشهدها العراقيون، كأنهم ألفوها وألفتهم، فصاروا يتلقون الموت باستسلام، ويمضون في حياتهم، في انتظار موت محقق عبثي، آتيا من حيث أتى. ومما يعمّق البعد الديستوبي أسلوب السرد الواقعي، المغرق في التفاصيل الصغيرة والكبيرة التي تتراكم تراكم الجثث في المتخيل الروائي، والإيقاع الرتيب حد الإملال والتشبع من تنويعات تيمة الموت في الرواية.

3.4 البنية الكابوسية في الرواية

يتجلى البعد الديستوبي في نسيج من الكوابيس التي يسردها البطل في مقاطع مستقلة، تتخلل مقاطع/كوابيس اليقظة -إن صح التعبير- في إيقاع يتسارع ويتكثف مع التقدم في عملية السرد، كما يبينه الجدول التالي:

جدول 1: البنية الكابوسية في الرواية

الكابوس	رقم المقطع	الصفحات
1	1	ص7-9
2	6	ص39
3	15	ص81
4	20	ص108
5	30	ص167
6	34	ص183
7	37	ص190-191
8	39	ص194-195
9	41	ص199
10	47	ص224-225
11	48	ص226

وسنكتفي في هذا المقام بإيراد بعضها للوقوف على طبيعة وأسلوب هذه الكوابيس التي ترتبط كلها بالجثث والموت، على غرار كابوس المقطع 6، وهذا مقتطف منه: «أيقظني من النوم شيخ هرم بشعر ولحية طويلة اشتعلا شيبا وقال لي بصوت بدا كأنه قادم من بعيد: "قم يا جواد واكتب الأسماء كلها !" استغربت أنه يعرف اسمي. نظرت إلى عينيه الغائرتين وكانتا بلون سماويّ غريب. كان وجهه يزدحم بالتجاعيد كأن عمره مئات السنين. سألته: "من أنت وأسماء من؟" فابتسم وأجابني بسؤال: "ألم تعرفني بعد؟ هات ورقة وقلما واكتب الأسماء كلها يا جواد وإياك أن تنس اسما ! إنها أسماء الذين سأقطف أرواحهم غدا وأترك لك أجسادهم لتطهرها" قمت من سريري وجئت بدفتر وقلم وركعت على الأرض أمامه وقلت له: "أنا مستعد" أغمض عينيه وأخذ يقرأ مئات الأسماء المختلفة، فكتبت كل واحد منها....»[9]. يتشخصن الموت في هيئة شيخ هرم لجواد طالبا منه تدوين أسماء الموتى الذين سيقبض أرواحهم في اليوم التالي، وبدلا من تدوين الأسماء يكتشف جواد أنه دون في دفتره مئات المرات أن كل نفس ذائقة الموت.

تتخذ كوابيس أخرى طابعا عنيفا حيث يختطف جواد ويكبل ويضرب من رجال ملثمين وأحيانا غير ملثمين، وأحيانا يقدم هؤلاء الغلاظ الشداد أنفسهم على أنهم ملائكة يعاقبونه على قيامه بمهمة التغسيل دون أن يكون مؤمنا، أودون أن يسبق النيّة، وأحيانا أخرى هم موظفون حكوميون يطالبونه بالإجازة التي سمحت له بفتح المحل والاسترزاق منه، وأحيانا تظهر في كوابيسه جثث الذين غسلهم في نهاره، وفي بعضها تغسل الجثث المتكاثرة بعضها بعضا، وفي إحدى كوابيسه يظهر والده بعد وفاته في المغيسل يطلب منه مساعدته في العمل، وأحيانا تتراءى له تماثيل جياكوميتي النحيلة الطويلة البائسة جثثا يغسلها فتذوب منه بفعل الماء، ومن أشد الكوابيس رعبا تلك الكوابيس التي يتراءى له فيها جسد المحبوبة ريم طالبة منه تغسيله، قبل أن يختطف ملثمون مجهولون جثتها وينطلقوا بها بعيدا.

تشكل هذه الأجواء الكابوسية بما تحويه بدورها من مشاهد عنف ودم وأشلاء صورة متناظرة مع كوابيس اليقظة، حيث يتعايش جواد وبقية الشخصيات مع الجثث وأخبار القصف والتفجيرات ونعي الموتى يوميا في عراق الألفينات. إنها ديستوبيا حقيقة تفقد فيها الحياة قيمتها ومعناها، لكنها ليست خيالا مستقبليا، بل واقع يومي بل روتين اعتاد عليه الجميع، وتلك قمة المأساة.

4.4 اللاانتماء والفن في مواجهة الاستبداد، العنف والطائفية

طرح على سنان أنطون في إحدى المقابلات التلفزيونية سؤال مهم لم يقدم له جوابا مباشرا هو: كيف يمكن أن تكتب عن الطائفية دون أن تكون طائفيا؟ ولنستعد هذا السؤال بصيغة أشمل: كيف يمكن أن تكتب عن الاستبداد والحرب والطائفية دون أن تتخذ موقفا متحيزا لأحد الأطراف المتناحرة؟

اختار الكاتب لروايته بطلا لا منتميا، ينفر من الموت ويقاومه من خلال الفن. ينتمي جواد لأسرة شيعية لكنه ليس متشيعا ولا مؤمنا، رغم أن الظروف أجبرته على ممارسة تغسيل الموتى، تلك المهنة التي لا يفترض أن يتصدى لها إلا مؤمن، أدى جواد المهنة التي تتوارثها العائلة بتفاصيلها، محترما كل طقوسها. «إذا كان الموت ساعي بريد فأنا واحد من الذين يتسلمون رسائله كل يوم. أنا من يخرجها برفق من ظروفها الممزقة المدماة. وأنا الذي يغسلها ويزيل عنها طوابع الموت، ويجففها ويعطّرها متمتما بما لا يؤمن به تماما، ثم يلفّها بعناية بالأبيض كي تصل بسلام إلى قارئها الأخير: القبر»[10]. لكن خلاف لوالده كان جواد بطل الرواية فاقدا للايمان، هشا من الداخل، ومحتارا إزاء عبثية الموت.

لا تتخذ شخصية جواد أي موقف سياسي مما يحدث في العراق، بل تظل متحصنة بقلقها الوجودي الذي تجد في الرسم والنحث مهربا منه، وأسلوبا لمقاومته، إذا ما استثنينا موقفه من الطائفية التي كان يمقتها بشدة، ويحاول اقناع والدته ومحيطه القريب ببشاعتها معرضا نفسه للإدانة من قبلهم. لم يكن جواد متدينا، ولم يتشيع كما أهله، رغم أنه رافق والدته لزيارة ضريح الكاظم، الذي دخل معه في مناجاة حميمة بين غريبين، وكل غريب للغريب قريب، وقد وجد البطل في ساكن الضريح معادلا موضوعيا لحالته التي يعيشها سجينا لأهله ووطنه، وللموت.

يبث الروائي بعض المواقف السياسية من خلال شخصية العمّ صبري الشيوعي المنفي من العراق من أيام حزب البعث، والذي عاد في زيارة للعائلة بعد سقوط النظام على يد الأمريكان، وشهد تصاعد الخطاب الطائفي الذي انتهى بموجة اقتتال ضارية. الموقف الوحيد الذي يتخذه بطل الرواية جواد كان ضد الطائفية التي صارت ذريعة لنشر الموت، مما جعله يكره كل الطوائف على قدم المساواة وفي مقدمتها الطائفة التي يحسب عليها.

ترتسم بالتدريج شخصية جواد الكاظم اللامنتمي، «واللامنتمي-هو ذلك الإنسان الذي لا ينتمي إلى حزب، ولا ينتمي إلى عقيدة ما، يقارب فيها من العدمية، أحيانا، والبوهيمية، حينا آخر، أو النهلستية..»[11]، وقد ظهر مصطلح اللامنتمي إثر نشر كولن ولسون لكتابه الذي يحمل هذا العنوان في منتصف الخمسينات من القرن العشرين، وهو وليد الفلسفة الوجودية التي انتشرب عقب الحربين الكونيتين لتصوغ روح السخط من الواقع ومشاعرالضياع واليأس والإحباط التي عصفت بالإنسان في الأزمنة الحديثة، وقد عرف العراق المعاصر وكل "الشرق الأوسط" والعالم العربي الإسلامي، ولا يزال ظروفا مشابهة، بل أبلغ تأثيرا في الإنسان العربي الذي كابد الهزيمة إزاء الكيان الصهيوني، وتنكيل الأنظمة المستبدة به من جهة، وتكالب القوى الغربية الأمبريالية عليه، حتى وجد نفسه ضائعا مسحوقا يائسا وقد سدت في وجهه كل منافذ الأمل.

اصطنع جواد الفن ملجأ يأوي إليه من الحضور الطاغي للموت في حياته، وقد بدأ شغفه بالرسم مع أول صيف اشتغل فيه مع أبيه بالمغيسل، وتطورت علاقته بالرسم والنحت مع مرور الأيام في صدام مع الموت الذي عبر عنه رمزيا من خلال تقريع والده له وقد كشفه يرسم وجه ميت في دفتر. وتطور الخلاف بعد أن اختار جواد الالتحاق بكلية الفنون الجميلة، واشتغل في الدهان بدل مساعدة والده أيام العطل الصيفية.

بث السارد في الرواية تأملات وجودية كثيرة حول علاقة الفن بالخلود في مقابل الموت، على غرار ما ورد على لسان الاستاذ عصام الجنابي في محاضرته عن تاريخ الفنون في المعهد، والذي عرفه على الفنان جياكوميتي الذي سيعجب بمنحوتاته اعجابا كبيرا، وفي ذلك تعزيز للبعد الوجودي اللامنتمي للبطل جواد و تكثيف للمنحى الديستوبي المتجسد في الفن السريالي عند جياكوميتي[12]. ومن الأسباب التي جعلت جواد ينجذب لهذا الفنان رؤيته للإنسان المعاصر، وأسلوبه في النحت. «إن ما يريد أن ينحته هو ليس الإنسان، بل الظل الذي يتركه خلفه. كانت تماثيله نحيفة بشكل غريب كأنها خيوط أو مومياءات نحيفة تم نبشها وإخراجها من القبور. كان الجسد عاريا وبأقل ما يمكن من التفاصيل. كما أن بعض الأعمال كانت ليد دون جسد تلوّح لوحدها. بدا لي الإنسان في عالم جياكوميتي وحيدا وحزينا، بلا معالم واضحة، يأتي من المجهول ويمضي نحوه»[13] .

تتلاشى أحلام جواد في الهجرة وممارسة الفن إلى الأبد مع فشل محاولته الوحيدة في عبور الحدود إلى الأردن ومنها إلى أوربا. ويفقد الحب مع اختفاء حبيبته ريم بعد أن أصيبت بسرطان الثدي، والتحاق غيداء التي كان على علاقة جسدية بها، التحاقها رفقة عائلتها بخالها في السويد بعد مقتل أبيها واستضافتهم لبضعة أشهر في منزل جواد. وتنتهي الرواية نهاية تعيسة. يقول: «الأحياء يموتون أو يسافرون والموتى دائما يجيئون. كنت أظن أن الحياة والموت عالمان منفصلان بينهما حدود واضحة، لكنني الآن أعرف أنهما متلاحمان. يحتان بعضهما البعض. الواحد يسقي لبأخر كأسه. أبي كان يعرف هذا وشجرة الرمان تعرف هذا جيدا. أنا مثل شجرة الرمان. لكن كل أغصاني قطعت وكسرت ودفنت مع جثث الموتى. أما قلبي فقد صار رمانة يابسة، تنبض بالموت، وتسقط مني كل لحظة في هاوية بلا قرار»[14]. ينتهي المطاف بجواد في المغيسل، يقضي أيامه في تغسيل الموتى، وهو يموت ببطء، مستسلما لقدره، بعد أن فهم لعبة الحياة والموت.

5. خاتمة

ختاما نؤكد أن رواية "وحدها شجرة الرمان" تحمل الكثير من الأبعاد الديستوبية التي تجلّت من خلال تشكلات الموت الذي يمثل تيمة محورية طاغية على الرواية، والبنية الكابوسية التي تؤطر الإيقاع السردي بانتظام، كما تتجلى في شخصية اللامنتمي التي يجسدها بطل الرواية جواد كاظم في مقاومته

للاستبداد والعنف والطائفية، وتأملاته الوجودية إزاء الموت الذي يلامسه يوميا في أجساد الموتى الذين يتولى تغسيلهم قبيل الدفن. وقبل ذلك تتبدى أبعاد الديستوبيا في واقع العراق القاتم سيما بعد الغزو الأمريكي في 2003، وهو الواقع الذي تقوم رواية سنان أنطون بمثيله، وهذا ما اعتمدنا عليه لإعادة النظر في تعريف الرواية الديستوبية العربية قياسا إلى الخيال العلمي والسياسي فقط، لأن قتامة الواقع فاقت حدود التخييل الديستوبي، لذا وجب توسيع مصطلح الديستوبيا في ارتحال المفهوم من الخيال العلمي إلى الواقع المرير في رواية "وحدها شجرة الرمان" لسنان أنطون.

الهوامش

[1] أحمد علي محمد: "أدب الواقع المرير (الديستوبيا) في الروايتين الغربية والعربية"، مجلة الآداب العالمية، العدد 182، أفريل 2020، ص14.

[2] انظر المرجع السابق، ص14.

[3] انظر نرمين صلاح القماح: " أدب المدينة الفاسدة انتقال من الأدب الخيالي إلى الواقع الحقيقي"، صحيفة العرب، بتاريخ 25/02/2018

شوهد يوم 2024/03/30 على الرابط:

https://alarab.co.uk/en/node/158753#:~:text=السياسي"20%والانهيار,والتلوث%20المدينة%20"أدب%20أو%20"الديستوبيا.

[4] مراجعة كتاب "العراق في زمن الحرب: الجندية والاستشهاد وإحياء الذكرى"للكاتبة دنيا رزق خوري، ترجمة: أيمن ح. حداد، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، شوهد بتاريخ: 2024/03/29 على الرابط:

https://www.dohainstitute.org/ar/BooksAndJournals/Pages/Iraq-in-Wartime-Soldiering-Martyrdom-and-Remembrance.aspx

[5] الرواية، ص 38.

[6] الرواية، ص40 و41.

[7] الرواية، ص169.

[8] جميل فتحي الهمامي: "جمالية الموت في الرواية"، 2018/9/15. شوهد بتاريخ 2024/03/30 على الرابط:

https://www.aljazeera.net/blogs/2018/9/15/جمالية-الموت-في-الرواية.

[9] الرواية، ص39.

[10] الرواية، ص10.

[11] مالك صقور: "اللامنتمي"، مجلة الموقف الأدبي، العدد 528، ابريل 2015، ص10.

[12] في مطلع القرن العشرين ولِدَ الفنان السريالي جياكوميتي، في مدينة ستامبا السويسرية على الحدود مع إيطاليا. كان والده رسَّاماً انطباعياً معروفاً يُدعى جيوفاني جياكوميتي، دَرَسَ الفنون الجميلة في جنيف، ثم انتقل إلى دراسة النحت في العاصمة الفرنسية باريس في العام 1922، التي كانت آنذاك (.وجهة الفنانين والمُبدعين، ومدينة تعجُّ بالتيارات الفكرية والفنية والموجات الجديدة، بحيث جمَعت أهم الفنانين الذين غيَّروا خارطة الفنون أمثال بيكاسو، وسترافنسكي،

وبيكت، وجويس، وبالتأكيد جياكوميتي الذي قدَّم لفن النَحْتِ منحوتات ذات طابع سريالي بتكويناتٍ حديثةٍ وبُعدٍ فلسفي مُرتبط بالوجودية والفكر الوجودي لجان بول سارتر، التيار الفكري الذي تأثَّر به جياكوميتي. (...) طقسٌ جنائزي يُخيِّمُ على منحوتات جياكوميتي، تماثيل تظهر عليها علامات الموت بمعناها الرمزي والمعنوي، أرواح مُنهَكة، وظلال أجساد هشَّة تبدو كأشباحٍ، فبحسب قول النحَّات "لم أكن أنحت الشخصَ الإنساني بل ظلَّه الذي يُلقيه على الأرض"، هذا الحزن الواضح على شخوص جياكوميتي يفسِّر المشهد الدموي لأوروبا بعد الحرب العالمية الثانية. رائحة الموت في كل الأرجاء والجميع يعاني عبثيّة المرحلة ونتائجها على الإنسانية جمعاء، وجياكوميتي بحساسيّته المُفرَطة وقدرته على الولوج إلى أعماق الروح الإنسانية والتعبير عن مُعاناتها، راح ينحت تماثيل صوَّرت غُربة الناس وعُزلتهم عن بعضهم البعض. كما في منحوتة "ساحة المدينة" التي يظهر فيها خمسة أشخاص بأجسادهم النحيلة يتجوَّلون في فراغٍ كلٌ في عُزلته الخاصة، يجمعهم المكان وتُفرِّقهم الوحدة. الرابط:

https://www.almayadeen.net/investigation/963904/-جياكوميتي-الذي-جسد-مأساة-وجودنا-الإنساني

[13] الرواية، ص65.

[14] الرواية، ص 255.

7. قائمة المصادر والمراجع:

7 .1. المصادر

1-أنطون، سنان، وحدها شجرة الرمان، منشورات الجمل، بيروت، بغداد.(2013).

7 .2. المراجع:

7. 2. 1. المجلات

1-صقور، مالك، "اللامنتمي"، مجلة الموقف الأدبي، العدد 528. (ابريل 2015).

2-علي محمد، أحمد، أدب الواقع المرير (الديستوبيا) في الروايتين الغربية والعربية، مجلة الآداب العالمية سوريا، العدد 182. (أفريل2020).

3-وطفة، علي أسعد، فلسفة الموت، تأملات وجودية، مجلة الموقف الأدبي – سوريا، العدد 491. (آذار/مارس 2012).

7. 2. 2. الأنترنيت

1-جميل فتحي الهمامي: "جمالية الموت في الرواية"، 2018/9/15. على الرابط:

https://www.aljazeera.net/blogs/2018/9/15/جمالية-الموت-في-الرواية.

شوهد بتاريخ 2024/03/30

2-دنيا رزق خوري، مراجعة كتاب "العراق في زمن الحرب: الجندية والاستشهاد وإحياء الذكرى"، ترجمة: أيمن ح. حداد، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. على الرابط:

https://www.dohainstitute.org/ar/BooksAndJournals/Pages/Iraq-in-Wartime-Soldiering-Martyrdom-and-Remembrance.aspx

شوهد بتاريخ: 2024/03/29

3-نرمين صلاح القماح: " أدب المدينة الفاسدة انتقال من الأدب الخيالي إلى الواقع الحقيقي"، صحيفة العرب، بتاريخ 25/02/2018

على الرابط:

https://alarab.co.uk/en/node/158753#:~:text=السياسي"20%والانهيار20%والتلوث,

الديستوبيا"%20أو%20"أدب%20المدينة.

شوهد يوم 2024/03/30.